٢ س

سلسلة

مغامرات إسلامية ٢

للفتيان

مقتل

ابن أبي الحقيق

تأليف الدكتور

إبراهيم عوض

دار ابن القيم

الإهـداء

إلى أطفال الحجارة في فلسطين المسلمة السليبة، الذين يحاربون العدو الصهيوني المدجج بالسلاح والمدعوم من الشرق والغـرب وليس في أيديهم إلا الحجـر، مستعينين بربهم القوي القـاهر، بينما مليار مسلم يتفرجون عليهم ويكتفون بمصمصة الشفاه.

يا أبطال الحجارة:

إن الإسـلام لم ينتصر يومًا بمصمصة الشفاه ولا باستعطاف الظالمين السفاحين، وإنما انتصر بالعزيمة والجلاد والتضحية وردّ الضربة بمثلها، «وبأمثال ابن عتيك ورفاقه»، رضي الله عنهم وأرضاهم.

فاجعلوا هؤلاء الأبطال النبلاء الشرفاء منارًا لكم، واحذوا حذوهم. واجعلوا أملكم وثقتكم في الله، فإنه لا يخذل عبده الذي يتوكل عليه.

بارك الله فيكم، وجعل غدكم خيرًا من يومنا.

مقتل سلام بن أبي الحقيق

كان سلَّام بن أبي الحقيق أحد زعماء اليهود من بني النَّضير، وكان حقده على رسول الله ﷺ ودينه حقدًا مشتعلاً لا تنطفيء له نار، وكان كلما انتصر الإسلام في معركة أو نجا من مؤامرة من المؤامرات التي كان يدبّرها له أعداؤه من المشركين واليهود ازدادت نار أحقاده تلظِّيًا، رغم أن الإسلام لم يبدأ اليهود ولا غيرهم قط بأذىً. بل إن الرسول ﷺ، لرغبته في أن يعيش المسلمون واليهود في المدينة بسلام، عقد اتفاقية بين الطرفين أساسها حرية العقيدة، والاحترام المتبادل، والتعاون والتضامن في الحرب وفي دفع الدِّيات.

ومع هذا لم تفلح هذه الاتفاقية الكريمة، ولا يد السلام والمودة التي بسطها الإسلام ورسوله إلى بني

إسرائيل أن تؤثر فيهم، اللهم إلا القليلين منهم، فظلت قلوبهم سوداء مظلمة تُعَشش فيها عقارب الحقد وتبيض وتُفْرِخ.

واستمروا يدبرون كل يوم مؤامرة خبيثة تهدف إلى النيل من النبي وأتباعه وسحق دينهم.

وذات يوم ذهب النبي ﷺ في نَفَرٍ من أصحابه إلى بني النّضير، ليستعينوا بهم في دفع الدِّية لِقَتيلين، على حسب نصوص الاتفاقية التي كانت بينهما، فانتهز هذه الفرصة زعماء بني النضير وعلى رأسهم **سلاَّم بن أبي الحقيق**، ودبّروا أمرًا.

لقد أخذوا يرحبون بالرسول وصحبه ترحيبًا شديدًا، ويؤكدون لهم احترامهم للاتفاقية واستعدادهم لدفع ما يجب عليه من مال الدية المطلوب، ثم أجلسوهم بجنب أحد البيوت، واستأذنوا منهم ليحضروا لهم المال. وكانوا قد اتفقوا مع أهل البيت الذي كان النبي وصحبه مستندين إلى

جداره أن يصعد بعضهم إلى سطح المنزل في هدوء ويلقوا فوق رأس محمد ﷺ برَحىً ثقيلةٍ تهشّمه تمامًا وبذلك ينتهي محمد والإسلام، ويرتاح اليهود من هذا الدين الجديد الذي رأوا أنه كشف بحقه باطلهم، وأنه سيأخذ الزعامة والسيادة منهم.

لقد كانوا يزعمون أنهم شعب الله المختار، ولا يطيقون أن يمسّ أحد هذا الزعم الكاذب المغرور مجرَّد مسّ.

بَيد أن الله سبحانه كشف المؤامرة لنبيه، الذي نهض من مكانه في التوّ مستأذنًا من أصحابه على نحوٍ لا يوحي بأنه قد علم بما يدبَّر له. وبذلك نجا عليه السلام من هذه القتلة البشعة! وكان لابدَّ لبني النضير من العقاب.

❋ ❋ ❋

خرج رسول الله ﷺ بالمسلمين لمحاربة بني النضير، الذين كعادة اليهود لم يكونوا قادرين على

المواجهة، بل بارعين فقط في حَوْل المؤامرات الشريرة في الظلام، فدخلوا حصونهم وأغلقوها عليهم. وأخذوا يرمون المسلمين بالسهام، ويركزون على خيمة النبي، الذي سرعان ما أمر بتقويضها ونصبها في مكان بعيد لا تصل إليه النِّبال.

كما تسلَّل نفر منهم، بتدبير من ابن أبي الحقيق وغيره من قادة بني النضير، تحت جَنْح الظلام ذات ليلة يريدون أن يقتلوا الرسول على حين غرة، لولا أنه عليه السلام كان قد تنبّه لذلك من قبل، فأخذ حيطته وكلف بالكُمُونِ لهم عليًّا ـ كرم الله وجهه ـ، الذي استطاع أن يأتي برأس قائد المتسللين، على حين لاذ الباقون بالفرار. فتتبعهم بعض المسلمين بأمر النبي ﷺ، فقتلوهم ثم أتوا برؤوسهم أيضًا فطُرحت في بعض الآبار.

ولكي يحطم الرسول ﷺ الروح المعنوية عند بني النضير أمر بقطع نخيلهم وحرقها، إذ كان يعرف أنهم

يعبدون المال، ولا يطيقون أن يصابوا في شيء منه.

فكان هذا أحد الأسباب في انهيار مقاومتهم، فلم يطل حصارهم أكثر من خمسة عشر يومًا، بعدها استسلموا على شرط الجلاء عن المدينة وترك أموالهم وأسلحتهم كلها للرسول عليه السلام. ونزل ابن أبي الحقيق مع معظم بني النضير في خيبر.

لم ينسَ ابن أبي الحقيق الفشل الرهيب الذي مُنِيت به مؤامرته لقتل الرسول ﷺ والقضاء على دينه، ولم يطب له عيش بسبب الهزيمة المُذِلّة التي حاقت به وبقومه.

وكان يقضي ليالي أشد سوادًا من شعر رأسه في فراشه يتقلب لا يستطيع أن يُغْمض جفنًا وهو لا يصدّق أن محمدًا قد أفلت من أيديهم بعد أن كان بينه وبين الموت قدر شعرة.

يا لحظّهم المشئوم! تمَّ الجلاء المهين عن يثرب بعد أن خُرِّبت ديارهم وحصونهم وزرعهم ونخيلهم،

وأخِذَتْ منهم أموالهم وأسلحتهم! إنه لا يستطيع أن يُبْعد عن عين خياله منظره هو وقومه وقد ركبوا الإبل وحملوا فوقها ما استطاعوا حمله من أخشاب بيوتهم، وأهل يثرب مصطفون على الجانبين يتفرجون عليهم ويشتمـون بهم ويسخرون منهم هم بني النضـير، الـذين كان هؤلاء الناس يعملون لهم ألف حساب وحساب قبل مجيء ذلك الرجل إليهم مطرودًا من قومه.

لقـد كان منـظر جلائهم فاضحًا؛ وضع أنوفهم وأنوف أنصارهم من المنافقين في التراب.

صحيح أنهم أعـطوا نسـاءهم الـدفوف والمزامير وطلبوا منهن أن يضربن ويزمرن، بعد أن جعلوا على هوادجهن أنفس الستـائر وأمروهن أن يلبسن أفخم الثياب الحريرية ويتحلّين بأجمل وأغلى ما عندهن من الجـواهر، وذلك ليداروا هَوَان الموقف ومذلته. لكن شيئًا من ذلك لم يُغْن عنهم فتيلا. لقد كان كله تظاهرًا

زائفًا لم يَخدعوا به إلا أنفسهم . وكيف كان يمكن أن يخدعوا به المسلمين وقد انهزموا على أيديهم وتركوا لهم كل شيء؟

فقد كانت نظرات المسلمين وهتافاتهم وتسبيحهم وتهليلهم وتحميدهم تعكس الفرحة الغامرة بهذا النصر الساحق، وتنبيء بأبلغ لسان أن تظاهر اليهود بالتجلد ودفوفهم ومزاميرهم وزينة نسائهم كانت سخفًا في سخف، وحماقة ما بعدها حماقة!.

هكذا كانت الأفكار تضطرب في رأس ابن أبي الحقيق كما يضطرب الماء المغليّ على النَّار المستعره، فيشعر بالكرب يخنقه وبالأشواك السامة تنغرز في قلبه . ولكن بدلاً من أن يكون ذلك مُعينًا له ولغيره من زعماء بني النضير على الشفاء من حقدهم المجنون على الرسول ﷺ والكفّ عن التآمر عليه وعلى دينه، أصبح هو بدوره عاملاً جديدًا من عوامل الغلّ والكراهية.

* * *

كان يهود خيبر قبل مجيء بني النضير إليهم راكنين إلى المسالمة، لا حُبًّا في الهدوء، ولكن عجزًا عن مناوأة المسلمين، إذ لم تكن فيهم أُسَرٌ ذات حسب وشهرة تستطيع أن تجمع الأحزاب للكيد للرسول ودينه. لكن لما نزل بنو النضير في بلادهم وفيهم سلَّام بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق، وحُيَيّ بن أخطب، تغير الوضع، وأصبحت خيبر محضنًا لتفريخ المؤامرات على الإسلام ونبيه.

لقد وضعوا أيديهم في يد أبي عامر الراهب، ذلك اليثربي الحاقد الذي بنى له المنافقون مسجدًا بظاهر المدينة ليجتمعوا إليه فيه سرًّا، بعيدًا عن عيون المسلمين، وأرادوا أن يفتتحه لهم الرسول، ولكن السماء أنبأته بحقيقة الأمر وحذرته من الاستجابة لهم فأحرقه.

لقد كان أبو عامر هذا يبغض النبي ﷺ بغضًا قاتلًا، ولم يترك وسيلة إلا استخدمها ولا جهة محلية أو

أجنبية إلَّا لجأ إليها ليؤلبها على الإسلام ورسوله. وقد بلغ من بغضه للرسول ﷺ ولدينه أنه في معركة أُحد كان في صف المشركين يحفر الحفر ليقع فيها المحاربون المسلمون وتتعثر فيها دوابُّهم، رغم أن ابنه حنظلة كان جنديًا في جيش الإسلام. ومع أن حنظلة قد استُشهد في تلك المعركة فلم يلن قلب أبيه، بل بقي على غِلّه وحقده. وها هو ذا يضع يده في أيدي اليهود ليضرب الرسول ضربة أخرى يأمل أن تكون القاضية، ولا تطيش كما طاشت ضربة «أُحد»، التي كانت وشيكة أن تنجح ويتم الخلاص من محمد لولا الحظ الغبيّ العنيد.

هكذا كانت نفسه تحدثه، وهكذا كان يمنّي سلام بن أبي الحقيق وسائر شياطين بني النضير وبني وائل وهم منطلقون إلى مكة ليؤلبوا قريشًا من جديد ضد الرسول والمسلمين، ويضموا إليها ما يمكنهم من القبائل الأخرى، وكانوا يتذاكرون كعب بن الأشرف

وسفره إلى مكة وأشعاره في تحريض قريش ونجاحه في دفع القرشيين إلى الهجوم على يثرب في معركة أُحُد انتقامًا من هزيمة بدر.

قال أحدهم:

- لقد كان ابن الأشرف رجلاً قلَّما يجود الزمان بمثله!

فرد عليه هوذة بن وائل:

- لقد اغتاله أتباع محمد. ومن أعجب العجب أن يكون على رأس قاتليه أخوه من الرَّضاع سلكان بن سلامة! تبًّا له من خائن!

فقال ابن أبي الحقيق:

- لابُـد أن نضع لهذه المهازل حدًّا. ولا يمكن أن يضيع دم ابن الأشرف هدرًا، وإلاَّ فلسنا بالرجال!

فعلَّق حيي بن أخطب:

لا . . . ، لا يمكن أن يضيع دم ابن الأشرف، ولا دم إخوانه المغاوير الذين سقطوا في الحرب مع الإسلام. لابد من الانتقام! لابد من القضاء على محمد هذه المرة

والتخلص إلى الأبد من تلك الشوكة التي في جُنُوبنَا.

فدمدم أبوعامر وقد تقلصت ملامحه تقلصًا مخيفًا:

- نعم، لابد من تدمير محمد، ذلك الساحر المخادع الذي غرَّر بأهل بلدي وأخذ مني ابني.. ابني الذي هو فلذة كبدي، وجعله يحاربني ويهزأ بي في أُحُد مع الهازئين. لقد أخذت أنادي أثناء المعركة: «**أنا أبوعامر الراهب**»، لأُعَرِّفَهُم بوجودي فيتركوا محمدًا وينضموا إليَّ، ولكن الخونة المارقين ومعهم ابني شتموني وأهانوني وصاحوا فيَّ: «اذهب عنا إلى الجحيم، أيها الفاسق!» وكانت ثالثة الأثافي أن قُتل ابني وهو يحاربني. تالله لتكونن هذه المرة هي القاضية! تالله لتكونَنَّ! تالله لتكونن! تالله لتكونن!... وأخذ يردّد ذلك القسم الحاقد وشدقاه يقذفان بالزَّبَد على شفتيه كأنه بعير هائج، والقوم ينظرون إليه وهم لا يستطيعون له شيئًا. لقد كان غائبًا بوعيه عنهم يتمثل محمدًا وقد قُتل وهو يُمثِّل

بجثته. وكان صدره أثناء ذلك يعلو ويهبط بشكل مخيف مع وقع أخفاف بعيره على الرمال.

وأخيراً بدد سلام بن أبي الحقيق الصمت فأرسل من بين أسنانه وشفتيه زفرة تكاد أن تشتعل من لهيب الغيظ، ثم قال:

تالله يا أبا عامر لتكونن هذه هي المرة القاضية! ولسوف أجعل لك من محمد عبرة الدهر. ولسوف ترى.

قال ذلك ونخس بعيره، وحذا رفقاؤه حذوه فانطلقت الإبل تعدو.

***

وصل الركب مكة، ويمم دار أبي سفيان زعيم قريش، فرحَّب بهم أيَّما ترحيب، إذ خمَّن ما أتى بهم، ثم أنزلهم أحسن منزل. وبعد أن أطعمهم وسقاهم تركهم يأخذون قسطهم من الراحة بعد عناء السفر الطويل من خيبر إلى مكة. وفي المساء اجتمع

الفـريقان في دار الندوة حيث تُعقد اللقاءات الهامة وتُناقش الأمور العامة ذات الشأن.

قال سلام بن أبي الحقيق:

- تعلمون أننا في عداوة مع محمد ونحن نعلم أنكم وإياه أعـداء أيضـا. فلماذا لا يضع بعضنا أيديه في أيدي البعض الآخر، ونتعاون على سحقه والقضاء عليه؟ إن مصلحتنـا مشـتركة، وهدفنا واحد. ولقد جئنا لنعقد معكم محالفة على حربه وقتاله.

قال ذلك وهو ينظر إلى أبي عامر، ثم استأنف موجهًا الكلام إليه:

- نُحبُ أن نسمع رأيك يا أبا حنظلة!

فانتفض أبوعامر قائلاً:

- لا تكنّني بأبي حنظلة، فهو ليس ابني، ولست أباه. لقد تركني والتحق بدين محمد وجيش محمد، ومات على غير ديني. عليه اللعنة!

اسمعوا يارجال قريش هي كلمة واحدة. إمَّا أن

نتحد ضد هذا الرجل قبل أن يستفحل أمره، وإمَّا أن يأكلنا واحدًا واحدًا. فماذا أنتم قائلون؟.

فهاجت أصوات القرشيين بالسباب للمسلمين ورسولهم ودينهم، لكن أباسفيان صاح بصوت جَهْوَرِيّ أسكت به الجمع الهائج قائلاً:

- دعونا من السِّباب، فإنه لا يقدم ولا يؤخر. المهم أن نتفق على شيء واضح ومحدَّد.

فانبرى حُييُّ بن أخطب قائلاً:

- نِعْم الرأي! فلنتفق على شيء واضح ومحدد.

قال أبوسفيان:

- سوف يخرج من بطون قريش كلها خمسون رجلاً، وتخرجون أنتم أيضًا إلى الكعبة، فنتحالف هناك ونتعاهد على ألا يخذل بعضنا بعضًا بل نكون يدًا واحدة إلى آخر نَفَسٍ فينا.

قال وفد خيبر ويثرب:

- هذا هو الكلام!

فاستطرد أبوسفيان قائلاً:

ـ والآن أحب أن أسألكم يا معشر يهود سؤالاً لا يستطيع أحدٌ غيركم أن يُجيبني عليه.

إنكم أهل دين وكتاب، وعندكم العلم اليقين، فأخبرونا عن خلافنا مع محمد. إنه يدَّعي أن دينه أفضل من ديننا، فهل يمكن أن يكون هذا صحيحًا ونحن خُدَّام البيت الحرام والقائمون بحاجات حجّاجه، ونتمسك بالأصنام التي كان يعبدها آباؤنا؟

فقال سلام بن أبي الحقيق:

ـ دين محمد خيرٌ من دينكم!! من قال ذلك؟!! إن هذا لهو الكذب الصُّراح. بل دينكم أنتم هو الدين الحق. إنكم تقومون على أمر البيت الحرام وتعظِّمونه، وتكرمون الحجاج الذين يأتون إليه من كل أنحاء البلاد. ثم أنتم أوفياء لدين آبائكم، ومازلتم تعبدون ماكانوا يعبدون. أما محمد فقد جاءكم بدين لا تعرفونه، وسفَّه آباءكم وأجدادكم، وعاب أصنامك، وفرّق صفوفكم، وأشاع الاضطراب في بلادكم. أنتم بلا شك أصحاب الحق. أما هو فدينه باطل، وكلامه باطل، وفعله باطل، وكل

أمره باطل، ومن اتبّع ومشى وراءه فهو على الباطل.

* * *

ترك وفد خيبر ويثرب مكة بعد أن تعاقدوا مع قريش على قتال محمد، والقضاء عليه وعلى دينه، وبعد أن اتفقوا على وقت يلتقون فيه لحربه. ثم انطلقوا إلى غطفان وأخذوا يحرضونهم كما حرّضوا قريشًا، وزادوا فأغروهم بوعدهم أن يتنازلوا لهم عن محصول نخيل خيبر سنة إذ هم وقفوا بجانبهم ضد محمد. وانطلقوا هم وقريش كلٌّ من جانبه يمرون على قبائل العرب الأخرى ويضمونها إليهم، فانضمت إليهم أحزاب كثيرة، وتلاقى الجميع آلافاً مؤلفة عند مشارف المدينة لغزوها وضرب الإسلام ورسوله في مقتل، لولا أنه ﷺ كان قد نما إلى علمه خبر المؤامرة، فأمر - بناءً على اقتراح سلمان الفارسي - بحفر خندق عريض وعميق من الجهة التي يمكن أن يدخلوا منها إلى المدينة.

ورأى المسلمون الأعداد الهائلة لأحزاب العرب واليهود فوقع الخوف في قلوبهم. وزادهم خوفاً الاتفاق

الـــذي تم بين أعـدائهم وبـين بني قريظة جيرانهم في المدينة . إلا أن رباطة جأش الرسول ﷺ وعمله على بث الطمأنينة في نفوسهم وتبشيره إياهم بالنصر من عند الله قد قضى على هذه المخاوف .

ثم استطاع رجل دخل الإسلام في تلك الظروف سِرًّا أن يوقع بين بني قُريظة والأحزاب فانهدم الاتفاق الشيطاني .

وأخيرًا أرسل الله ريحًا عنيفة في ليلة باردة على معسكر الـكفـر اقتلعت خيامهم وكفـأت قدروهم وأطفـأت نيرانهم ، فظنوا أن المسلمين قد باغتوهم وأنها الهزيمة ، فوثب أبوسفيان على بعيره وفرَّ هاربًا يستقبل الصحراء لا يلوي على شيء . وتبعه الأحزاب جميعًا كأن الشياطين قد تلبَّستهم وأطارت صوابهم .

* * *

بلغ غيظ المسلمين من ابن أبي الحقيق قمته ولم يعودوا يستـطيعـوا عليه صبرًا . لقـد كادت مؤامرته الأخيرة أن تكتسح دينهم ووجـودهم لولا لطف الله بهم . إنهم لا

يستطيعون أن ينسوا شبح الحصار الرهيب والليالي المرعبة التي قضوها عند الخندق من جهة، وفي الطرف الآخر من المدينة من جهة أخرى، خشية أن يتسلل المشركون في الظلام ويباغتوهم ويقضوا عليهم. لقد تألبت عليهم الأحزاب كلها من العرب واليهود، وأرادوا سحقهم. وكل ذلك من ابن أبي الحقيق، وكيده! وكان أشد المسلمين غيظًا منه (أي ابن ابي الحقيق) الخزرج. ذلك أنهم وإخوانهم الأوس هم الذين استقدموا الرسول ﷺ إلى بلادهم، وجعلوه يترك بلده ويهاجر إليهم، ووعده أن يحموه ويدافعوا عنه كما يدافعون عن أنفسهم وزوجاتهم وأولادهم. وقد سبقتهم الأوس فقتلوا عدو الله «**كعب بن الأشرف**»، الذي كان يضع يده في يد ابن أبى الحقيق ضد الإسلام ورسوله، فهل تذهب الأوس بهذا الشرف ويبقون هم بلا إنجاز يثبتون به أنهم يحبون دينهم ونبيهم وأنهم عند كلمتهم التي أعطوها له؟

لا، إن ذلك لن يكون.

عندئذ صحَّ عزمهم على أن يقتلوا ابن أبي الحقيق كما

قتل إخوانهم الأوس ابن الأشرف ويخلّصوا الإسلام والمسلمين من شره. فاجتمع نفرٌ منهم هم: عبدالله بن عتيك، وعبدالله بن أُنَيْس، وأبو قتادة الأسود بن الخُزاعي، ومعهم مسعود بن سنان، وهو من قبيلة أسلم، وكان حليفًا لهم، وأخذوا يتشاورون فيما ينبغي أن يفعلوه للتخلص من ذلك الوغد اليهودي.

قال ابن عتيك:

- إن عندي فكرة.

فاشرأبت إليه الأعناق، وقال الجميع في نَفَسٍ واحد:

- هاتها، بارك الله فيك، ولا حَرَمنا من خططك وأفكارك!

فأجابهم وقد قبض أصابع يده اليمنى إلا سبَّابته، التي أخذ يرفعها ويخفضها مؤكدًا بها كلامه:

- لعلكم لا تعرفون أن لي أُمًّا من الرضاع من يهود خيبر.

ثم صمت قليلاً وهو يتفرس في وجوههم ليرى أثر كلامه عليهم، فوجد الأبصار تحملق فيه، والحواجب مرفوعة والأفواه مزمومة فتنحنح قليلاً ثم مضى قائلاً:

- فما رأيكم لو ذهبنا إلى خيبر كأننا ذاهبون إلى الشام في تجارة وأننا مارّون بأمي تلك للتحية والسلام، ثم ننزل عندها، ومن هناك نستطلع المكان ونرى ما يمكن عمله للقضاء على هذا الكلب العقور؟

فقال بعضهم:

- فكرة طيبة.

- اتفقنا؟

- اتفقنا!.

❊ ❊ ❊ ❊

أنصت النبي ﷺ لما افتوه هذا النفر من الخزرج، وسمع منهم الخطوط العامة لخطتهم، فباركهم وأمرهم بالتزام أقصى ما يمكن من الحذر والكتمان، ولكنه نهاهم أشد النهي عن قتل أي امرأة أو صبيّ أو مسّهما بأي أذى. ثم جعل عبدالله بن عتيك رئيساً عليهم، ودعا الله أن يسدّدهم وأن يرجعهم سالمين مُظفَّرين.

❊ ❊ ❊

كان هؤلاء النفر الخزرجيون وحليفهم يرتحلون ليلاً ويستريحون نهارًا، تجنبًا لحرارة الشمس التي تصبّ شُواظها الناريّ على الصحراء، وتفاديًا للعيون، حتى تكون ضربتهم مفاجئة.

***

سمعت أم عبدالله بن عتيك من الرضاع دقاً على الباب، فقامت لتفتحه ففوجئت بعبدالله، الذي حياها أحسن تحية وأبدى لها من ضروب الشّوق والودّ ما سرّها غاية السرور. وبعد التحية والترحيب سألته عن أحواله وأحوال أسرته وعن السبب الذي قدم به إلى خبير، فقال لها:

لقد كنت ذاهبًا مع إحدى القوافل في تجارة إلى الشام، ووجدت نفسي على مقربة منك فقلت: آتيك وأراك وأطمئن عليك، فإنني لم أرك منذ زمن طويل. لقد اشتقت إلى أميّ التي أرضعتني بلبنها وأفاضت عليَّ حنانها وعطفها، فتخلفت عن القافلة لأزورك، وسوف ألحق بها بعد قليل أنا ونفرٌ من أصدقائي من يثرب بقوا معي ليؤنسوني.

فقالت في دهشة:

ـ نفرٌ معك من أصدقائك ولا تقول؟ أين هم؟ ولماذا لم تحضرهم معك؟

فأجاب ابن عتيك:

ـ لم نشأ أن نفاجئك.

ـ تفاجئني؟ وهل يفاجيء الابن أمه؟ اذهب فائت بأصدقائك ليتناولوا معك لقمة وينالوا شيئًا من الراحة، فلابُدَّ أن الرحلة قد أرهقتكم إرهاقًا شديدًا.

فشكرها ابن أبي عتيك وأثنى عليها ثناءً كبيراً، وانطلق ليحضر رفقاه.

* * *

استأذن النفر الخمسة من أم عبدالله بن عتيك من الرضاع بعد أن شكروها على ما قدمت لهم من خبز وتمر. وقد حاولت أن يبقوا عندها تلك الليلة، ولكنهم تعللوا بخوفهم ألا يدركوا القافلة، فودعتهم عند الباب، وظلت واقفة حتى غابوا عن بصرها عند أحد المنعطفات، ثم دخلت.

ولما خرجوا إلى الفضاء العريض كانوا لايزالون يتحدثون عن القافلة التي تخلفوا عنها والتي عليهم أن يحلقوا بها في نفس الليلة. ولما خرجوا من البلدة وتأكدوا أن أحدًا لا يراهم انحرفوا فجأة نحو حصن ابن أبي الحقيق المنفرد في بقعة وحده خارج خيبر.

* * *

كان الليل قد شارف على الهبوط حينما ترك ابن أبي عتيك رفاقه خلفه واقترب من الحصن، فأخذ يستطلع مداخله ومخارجه وأسواره ومسارب الماء التي تمر من تحت تلك الأسوار. ثم لمَّا أحسّ بالرعاة والزرّاع من أهل الحصن عائدين من المراعي والحقول تنحى بعيدًا حتى لا يراه أحد. وبعد أن هدأت الرِّجْل وسمع صوت المفاتيح تُصَلْصِل في يد الحارس يريد أن يغلق الباب أسرع فجلس القرفصاء غير بعيد من باب الحصن بحيث لا يراه الحارس، وغطى رأسه بثيابه متظاهر بأنه يقضي حاجته.

صاح الحارس به وقد حسبه من أهل الحصن:

- عجِّل يا رجل ولا تؤخرني، فإني أريد أن أغلق الباب.

أم تريد أن تقضي ليلتك خارج الحصن؟

تنحنح ابن أبي عتيك مغمغمًا:

ـ أليس عندك صبر؟ لحظة واحدة. سأفرغ في الحال.

قال ذلك وهو يتظاهر بأنه يمسح نفسه. ثم أنزل ثيابه ونهض وأقبل على الحارس فحيَّاه، ودخل في ستر الظلام.

❋ ❋ ❋

تلفت ابن عتيك حوله بعد أن انفتل من الباب، فرأى حظيرة حَمير قريبة من مدخل الحصن، فحث الخُطا ناحيتها وولجها، ومضى يتحسس طريقه بين الحمير إلى أن بلغ أقصى الحظيرة فكمن تحت بطن حمار. ولبث ينتظر وعينه على الباب يتطلع ناحية باب الحصن ويراقب البواب وهو يغلقه، ويضع سلسلة المفاتيح على وتد في الجدار الذي على يمين الداخل، وينصرف ماراً بالحظيرة. فتهيأ ابن عتيك للنهوض من جلسته المرهقة، ولكنه لمح البواب يتوقف عند الباب، فتجمد في مكانه حابساً أنفاسه ومغالباً رغبةً في السُّعال وشعورًا قويًا بالغثيان من جرَّاء صُنَان الحمار.

ألقى البـواب نظرة عارضة داخل الحظيرة، ثم شدَّ بابها وراءه ومضى.

لكن ابن عتيك ظل رابضـاً في مكـانـه مرهفاً أذنيه ينصتّ إلى وقـع أقدام الحارس وهو يبتعد، ومحملقًا في الظلام ليتبين طريقه بين الحمير حتى لا يصطدم بواحد منها فيعضه أو يرفسه أو ينهق فينبه أهل الحصن إلى مكانه.

وبعـد أن اطمأن تمامًا إلى انقطاع الرِّجْل نهض من مربضه واتخذ طريقه ناحية الباب. وهناك وقف يتسمع برهة زيادة في الحذر، ثم فتحه في هدوء وقطع المسافة التي تفصـل بين الحظيرة وباب الحصن، فأنزل المفاتيح من الوتد وفتح الحصن، وشدّ الباب وراءه جيدًا، وانطلق صوب المكان الذي ترك فيه رفقاءه.

* * *

كان الليل قد تقدم، فربط الخمسة إبلهم في مكان بعيد عن الـطريق، وكانت قد أكلت وشبعت، فبركت وألقى كل منها بجرانه إلى الأرض وأخلد إلى النوم. ثم

أخذوا طريقهم في صمت تام إلى الحصن، ودفعوا الباب ودخلوا، ثم أغلقوه ووضعوا المفاتيح في مكانها، وكمنوا خلفه بعضًا من الوقت إلى أن تأكدوا أن سلام بن أبي الحقيق قد فرغ من سمره وأن سُمَّاره قد انصرفوا إلى بيوتهم.

عندئذ مشوْا نحو بيت عدو الله، فدفعوا الباب ودخلوا. وكانوا إذا مروا بغرفة أغلقوها بالمفتاح على من فيها، كيلا يستطيعوا الخروج إذا شعروا بهم. وهكذا حتى تناهى إلى سمعهم من الحجرة العلوية التي كان ابن أبي الحقيق يسمر بها صوته وهو يحدث امرأته في الظلام قبل أن يأويا إلى الفراش. ورأوا السُّلَّم الذي يؤدي إليها فأخذوا يرتقون درجاته حتى بلغوا السطح، فدقوا الباب، فردت عليهم امرأته من الداخل:

- من الطارق؟

فأجابها أحدهم:

- نحن قوم من العرب قد أتينا إلى أبي رافع نريد أن نشتري منه غلالًا وتمرًا.

ففتحت لهم الباب وتنحت إلى جانب قائلة:

ـ ذاكم أبورافع، فادخلوا.

قالت ذلك وتهيأت لإضاءة المصباح، ولكن الخمسة اندفعوا كالريح إلى داخل العلية وقد امتشق كل منهم حسامه، فبعضهم وضع سن سيفه في نحر المرأة وهددها بأن يذبحها لو فاهت بكلمة، والباقون انقضوا بسيوفهم على عدو الله، الذي كان جسده يبدو في بصيص ضوء القمر المتسلل من النافذة أبيض كأنه ثوب من الكتان وأخذوا يضربونه، إلا أنه استطاع أن يتنحى بعيدًا عن السيوف ويحتمي ببعض الوسائد التي حالت بينه وبين أن تؤثر الضربات فيه.

عندئذ بركوا عليه فكتفوه، وانتزعوا الوسائد منه، وأخذوا يطعنونه في صدره وبطنه وجنبيه، وهو يرفس الهواء ويحاول أن يخلص نفسه منهم. وأخيراً وضع عبدالله بن أنيس ذُبابَ سيفه في بطنه ثم تحامل بكل ثقله على مقبض السيف فغاص نصله في جسد ابن أبي الحقيق وخرج من ظهره.

وفي الحال سكنت حركته وتلاشت مقاومته وأخذ جسده يتشنج تشنجات سريعة.

فقال ابن أنيس:

- كفى، كفى. لقد مات الكلب النجس. هيا بنا نَنْجُ بأنفسنا قبل أن يتنبه إلينا أهل الحصن.

فصاحت امرأته تُولول.

وأراد بعضهم أن يطير رقبتها حتى لا تدلَّ عليهم، غير أنهم تذكروا نهي رسول الله ﷺ عن أن يمسّوا أي طفل أو امرأة بأذى، فتركوها بعد أن أغلقوا عليها الباب من الخارج، وأخذوا يهبطون السُّلَّم في خفة القرود، إلا أن ابن عتيك قد تعثر في هبوطه فسقط من السلم والتوت قدمه، فحمله أحد زملائه، وانطلقوا جميعًا إلى باب البيت. وكانوا كلما مروا بغرفة من التي أغلقوها سمعوا همهمة وتساؤلات عما يجري في الدار.

* * *

همس أحد الخمسة من بين أسنانه:

- إلى باب الحصن قبل أن يستطيعوا فتح الأبواب ويدركونا.

فرد آخر:

- لا، بل ههنا، فإنا إن خرجنا من الحصن فسوف يلحقون بنا قبل أن نبلغ ركائبنا.

قال ذلك وقصد إلى أحد مسارب الماء المارة أسفل السور وأمرهم أن ينبطحوا جميعًا ويزحفوا إلى داخل المجرى ويلبدوا هناك إلى أن يسكن الطلب. وحذَّرهم أن يتفوَّه أي منهم ولو بهمسة.

* * *

أخذ الخمسة وهم منبطحون في الماء والطين يراقبون الموقف من خلال فوهة المجرى، التي ابتعدوا عنها قليلًا كيلا يراهم أحد. وسرعان ماسمعوا هرولة وصياحًا ورأوا المشاعل في أيدي كثير من أهل الحصن وهم ينطلقون ناحية الباب ويمرقون منه. وتضاربت آراء المطاردين، فبعضهم يرى أن يتجهوا يميناً، وبعض يفضل أن يتجهوا شمالاً، وبعض ثالث يقترح أن يتجهوا إلى الأمام. وأخيرًا استقر الرأي على أن يقسموا أنفسهم ثلاث فِرق، وكل فريق يمضي في اتجاه. وبدَّت من فم ابن عتيك - على

رغمه ـ آهة من الألم، فأسرع أحد زملائه فوضع يده على فمه ولكزه بالأخرى أن يسكت وقد برقت عيناه بالغضب في الظلام، فتحامل ابن عتيك على نفسه وصمت كالحجر.

❋ ❋ ❋

أخذ المطاردون يعودون أدراجهم والغيظ يأكل قلوبهم من الفشل والتعب بلا جدوى. وأرهف الفدائيون الخمسة آذانهم وأحدُّوا عيونهم في الظلام يتابعون مايجري في فناء الحصن.

قال أحد المطاردين:

ـ عجيب أمر هؤلاء القتلة! لقد اختفوا ولم يتركوا وراءهم من أثر. لكأن الأرض انشقّت وابتلعتهم!

فقال ثان:

ـ لقد بحثنا عنهم في كل اتجاه، فلم نجدهم.

فعقّب ثالث:

ـ ألا يمكن أن يكون القتلة من أهل الحصن، وقد فروا إلى بيوتهم؟

فقال رابع :

- أتريد أن تقول إن بين اليهود خونة؟ ولم لا يكون القتلة قد تركوا خيلهم أو إبلهم هنا عند الباب، ثم ركبوها بعد الحادثة وانطلقوا يسابقون الريح؟.

فقال الأول :

- تُرى من القتلة؟.

فأجابه الرابع :

- وهل هناك غيرهم؟ إنهم أتباع محمد، أولٰئك الشياطين الذين لايقف أمامهم شيء. إني لأعتقد أن محمدًا لو أمر أيًّا منهم أن يطير في الهواء، أو يخرق الأرض ويغوص فيها لفعل! هل نسيتم كيف قتلوا ابن الأشرف؟.

فارتفع صوت متسائلًا والغيظ يكاد يخنقه :

- لكن الذي يحيرني هو: كيف دخلوا الحصن؟ أم لعلهم اخترقوا الأسوار؟.

فقال الثالث :

- حسنٌ إن لم نمض في مطاردتهم بعيدًا، فلربما كانوا قد أعدّوا لنا كمينًا فقتلونا نحن أيضًا كما فعلوا مع إخواننا في

المعركة التي دارت بيننا وبينهم في يثرب قبل أن يطردنا منها محمد.

فقال الثاني في انكسار مهزوم:

ـ معك حق!

ثم أغلقوا باب الحصن جيدًا، واتجهوا جميعًا بمشاعلهم في اتجاه بيت ابن أبي الحقيق وهم يلغطون.

* * *

خرج الخمسة من الفوهة الخارجية للمجرى بعد أن اطمأنوا تمامًا أنه لا أحد عند باب الحصن ولا في فنائه.

وأغذوا السير وهم يتناوبون حمل ابن عتيك مبتعدين عن الحصن، إلى أن بلغوا الموضع الذي تركوا فيه ركائبهم، فبقوا هنا قليلاً. وكانت تباشير الفجر قد اقتربت، وشرعت الدِّيَكَة تصيح.

ثم ارتفع من فوق أسوار الحصن صوت حملته الريح في اتجاههم يعلن موت ابن أبي الحقيق، فانكبوا جميعًا على الأرض ساجدين شكرًا لله. ثم انطلقوا قافلين نحو المدينة.

* * *

كان رسول الله على المنبر يخطب المسلمين في مسجده، وكان قد مرَّ على خروج الفدائيين الخمسة في مهمتهم عشرة أيام.

وفجأة أبرق وجه الرسول عليه السلام، وقطع خطبته قائلاً وهو ينظر نحو باب المسجد:

ـ أفلحت الوجوه!

فاستدار الصحابة ليروا ماذا هناك، فرأوا الفدائيين الخمسة بالباب، وعلى وجوههم البشر والبهجة.

وهم يجيبون الرسول في صوت واحد:

ـ أفلح وجهك يارسول الله!

وكأنما كانت هذه هي كلمة السرّ بينهم وبين الرسول، فقد أعلن ـ عليه الصلاة والسلام نبأ مقتل عدو الله، فكبّر المسلمون وهلّلوا.

ثم نزل رسول الله من فوق المنبر. ولما استمع إلى تفاصيل العملية دعا لهم وباركهم. ثم مسح بيده الشريفة على فصل قدم عبدالله بن عتيك فبريء لتوه.

مراجع القصة

١ ـ صحيح البخاري .
٢ ـ السيرة النبوية لابن هشام ط/٢ مصطفى البابي الحلبي تحقيق السقا والإبياري وشلبي ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م .ـ
٣ ـ جوامع السيرة لابن حزم . ط إدارة إحياء السنة/ باكستان تحقيق . د. إحسان عباس ود. ناصر الدين الأسد .
٤ ـ إمتاع الأسماع للمقريزي ج/١ تصحيح وشرح محمود محمد شاكرط . لجنة التأليف والترجمة والنشر .
٥ ـ The Spirit of Islam, سيد أمير علي .
٦ ـ مصدر القرآن ـ دراسة في الإعجاز النفسي/د. إبراهيم عوض .

مطابع ابن تيمية بالقاهرة
هاتف : ٦٢٢٦٦٠ - ٨٦٤٢٤٠